اليهود في منطقة سوس
دورهم الاقتصادي وعلاقتهم بالصويرة

عمـر أفـا
كلية الآداب والعلوم الانسانية
الـربـاط

١ ــ الظروف العامة للاستيطان :

رغم ما عاشه اليهود في المغرب من تاريخ طويل، فإن عمليات الاستيطان الأولى في مناطقه المختلفة، والتي جاءوا إليها على شكل موجات متتابعة عبر العصور، نكاد لا نعرف عنها إلا القليل، لأنه تعوزنا الوثائق والآثار المكتوبة، التي بدونها لا نستطيع التأريخ لبدايات استقرار اليهود بالمغرب، أو تسجيل مراحل هذا الاستقرار، أو تتبع الأصول العرقية لكثير منهم، وهي أمور ماتزال مجهولةً تماماً[1].

ولعل أقدم وثيقةٍ معروفة عن استقرار اليهود بالمغرب هي التي تم العثور عليها بإقليم سوس على جبال الأطلس الصغير في قرية إفران، وهي عبارة عن شاهد قبر اليهودي يوسف بن ميمون المؤرخة بعام 3756 عبري الموافق لسنة 4 قبل الميلاد[2] وتعتبر شواهد القبور الموجودة في مختلف مدافن اليهود، خاصة في سوس[3] مصدراً من المصادر التاريخية الأصيلة (انظر الصورة 1).

---

(1) «... لم يجد التاريخ جوابا شافيا لحد الآن لبدايات استقرار اليهود بالمغرب، ولا لأصولهم العرقية ومازال تاريخهم يعد ضربا من الأساطير» أوردت هذه العبارة حرفيّا لبيان أن المراجع اليهودية نفسها تعاني من الجهل بفصول من تاريخ حياتهم في كثير من البلاد وخاصة بالمغرب، انظر :
ــ حايم الزعفراني.ــ ألف سنة من حياة اليهود بالمغرب.ــ ترجمة أحمد شحلان وعبد الغني أبو العزم، مطبعة دار قرطبة، الدارالبيضاء، 1987، ص 12.

(2) - GOULVEN, J.. - Origine Ancienne des israélites du Maroc, **Hespéris**, 1927, Tome I, p. 325

(3) لقد اعتنى يهود سوس بمدافنهم، غير أن جلها الآن تعرض للاهمال، كما يشاهد في مقبرة تاماليحت بهشتوكة، واسكا أوبلاغ، وإيليغ بتازروالت، وقد تميزت مقبرة إيليغ عن المقبرتين

نموذج شاهد قبر من مقبرة إيليغ بتازروالت (صورة 1978)

ترجمة النص :

لبّى داعي ربّه الحكيم الكامل الحقير مردخاي، أسكنه الله الجنة، ابن الطاهر الحكيم الحقير الشريف الشيخ الرِّبّي داود، أسكنه الله الجنة، يوم الاثنين 27 شهر (آب) سنة 5678 للخليفة [1918] فلينعم برضوان الله.

(ترجمة الاستاذ أحمد شحلان)

وقد لا يعتبر هذا الشاهد أقدم الوثائق على الاطلاق، لكن من الأمور الثابتة أن منطقة سوس استقبلت المستوطنين القدامى من اليهود، ممن يمكن ارجاع بداية مجيئهم إلى المغرب، إلى القرن الثالث قبل الميلاد[4] واستمرت هجراتهم حتى العهود المتأخرة، بما في ذلك الفئة القديمة التي جاءت من فلسطين بعد تحطيم معبد سليمان في القرن الأول، وجاء مستوطنون آخرون في نهاية الفترة الرومانية، وخلال الحكم البيزنطي، وقد سكنوا المدن الصغيرة والواحات والقرى وسط المغرب وجنوبه[5]، أما الفئة التي جاءت في العصور الحديثة فقد كانت من سلالة اليهود الذين طردتهم البلاد الأوربية في مختلف العهود خاصة اليهود الذين طردتهم اسبانيا سنة 1492، والذين طردتهم البرتغال سنة 1496[6]، وقد انضم إليهم ــ فيما بعد ــ مهاجرون من فرنسا وإيطاليا وسائر البلاد الأوربية، واستقروا في المدن الكبرى في شمال المغرب، ومع أن القادمين تخلصوا من بعض آثار اللغات الأوربية وتقاليدها، واختلطوا باليهود من أهل البلد، فقد ظلت فئة كبيرة منهم تحتفظ بعلاقاتها التجارية مع دول أجنبية في مختلف أنحاء العالم.

أما علاقتهم بسكان المغرب فقد اتسمت عموما بالوفاق في كثير من العهود[7] سواء على مستوى الأفراد والجماعات أو على مستوى الحكام، فقد

= الأخريين بوجود شواهد منقوشة بعناية على صخور صقيلة، باللغة العبرية، صوّرت مجموعة منها كوثائق سنة 1978 (انظر النموذج المرفق) وقد تنبه بعد ذلك الباحث باسكون لهذه الشواهد فانجز على أساسها بمساعدة دانييل شريتر دراسة خاصة عن مقبرة اليهود بإيليغ، انظر :

- PASCON, Paul.- LA MAISON D'ILIGH et l'Histoire sociale du Tazerwalt. imp. NAJAH EL JADIDA, Casablanca, 1983, pp. 113-140.

(4) عبده علي إبراهيم وخيرية قاسمية.ــ يهود البلاد العربية.ــ دراسات فلسطينية، مركز الأبحاث، بيروت، 1971، ص 269.

(5) كتاب يهود البلاد العربية، نفس المرجع أعلاه ونفس الصحفة.

(6) بن جلون عبد المجيد ــ جولات في مغرب أمس، (1878)، مطبعة النجاح، الدارالبيضاء، 1974، ص 120.

(7) لم تخل الحياة اليومية من النزاعات العادية بين اليهود والمسلمين حول القضايا التجارية والعقارية، وأحيانا تنشأ صراعات بين السكان فيقوم المخزن بدور المصالحة والتحكيم، غير أن القرن التاسع عشر عرف تطورا خاصا بالمغرب حيث سعت أوربا لجعل الأقلية اليهودية أداة للغزو الاستعماري وقد تجاوب بعض اليهود مع الغزو، وفي هذا السياق قدم منطفوري =

وجدوا في المغرب التسامح والمساواة والعدالة، فتمتعوا بحقوقهم الدينية والمدنية، وعاشوا فوق التراب المغربي على قدم المساواة مع المغاربة المسلمين، في نطاق ما يحدده الشرع في الكتب الفقهية لأهل الذمة، في الوقت الذي كانوا ــ في جميع أطراف العالم المسيحي ــ محرومين من أي حق قانوني[8] وكانت تشملهم رعاية سلاطين المغرب[9] طوال عهود من التاريخ، وكان هؤلاء السلاطين يصدرون ظهائر التوقير والاحترام ويهتمون بمختلف العلاقات بين المغاربة اليهود والمسلمين، زيادة على إصدار ظهائر عامة، كالذي أصدره السلطان سيدي محمد بن عبد الله سنة 1178هـ/ 1764م، والذي ينص على معاملة اليهود في المملكة من قبل الإداريين والمواطنين طبقا للعدل وهم متساوون أمام المحاكم[10] وفي نفس الاتجاه كان السلطان مولاي سليمان يصدر رسائل (براوات) للقياد[11] كتوصية بحسن المعاملة، وفي سياق هذا الموقف الرسمي للمخزن رصد ابن زيدان كثيرا من القضايا التي عالجتها الظهائر السلطانية في أبعادها المتباينة لفترة تمتد خلال قرن كامل من الزمن (ما بين 1250 ــ 1351هـ/ 1834 ــ 1932م)[12].

فكان بذلك تظافر الموقف الرسمي والشعبي، وقد استثمر اليهود هذا الموقف، فكوّنوا علاقات ودٍّ مع السكان ومع الحكام في آن واحد، وتبوأوا مكانة خاصة

= Montefiore الانجليزي 1864 إلى المغرب واستقبله السلطان محمد بن عبد الرحمان في شأن حقوق يهود المغرب واصدار ظهيراً مشهوراً (انظر هامش 8 أسفله) ومن ذلك الحين ــ وكنتيجة للتدخل الأجنبي ــ وقعت تجاوزات في أوساط اليهود مما دفع بالسلطان مولاي الحسن سنة 1883 إلى استشارة العلماء فيما حدث بملاح فاس من تجاوز لسلطة المخزن، انظر :

ــ أفا عمر.ــ الاستشارات السلطانية في مجال الاصلاحات في القرن التاسع عشر.ــ **مجلة كلية الآداب بالرباط**، عدد 16، 1991.

(8) جرمان عياش.ــ الأقلية اليهودية في مغرب ما قبل الحماية.ــ **مجلة دار النيابة**، عدد 12، 1986، ص 19.

(9) ابن زيدان عبد الرحمان.ــ العز والصولة في معالم الدولة، المطبعة الملكية، الرباط 1961، ص 132.

(10) عبده علي إبراهيم.ــ يهود البلاد العربية (م.س) ص 270.

(11) - BRUNOT, Louis et MALKA, E..- Textes Judéo - arabes de Fès, Rabat, 1939, p. 8 -

(12) ابن زيدان.ــ العز والصولة، (م.س)، ص 132 ــ 144.

نموذج من استقرار اليهود في البادية المغربية

نموذج من استقرار اليهود بمدينة الصويرة 1927

صورة فريدة تمثل لحظة من الاندماج أثناء نزهة خصوصية ارتدى فيها الجميع اللباس المغربي، وهذه أسماء الحاضرين من اليمين إلى اليسار 1) عبد النبي النجاري السلاوي الترجمان بمصلحة الأملاك المخزنية 2) يوسف بن حايم المالح (تاجر) 3) موشى بينيستي (موظف بالبنك المخزني) 4) إفيسك (فرنسي مكلف بأملاك الألمان بالصويرة وسوس بعد الحرب الأولى) 5) بابا أبنحايم (وكيل شركة تجارته).

(من أرشيف الفقيه عبد النبي النجاري بسلا 1993)

في قطاع الخدمات، كما كان باستطاعتهم الوصول ــ أحيانا ــ إلى مراكز السلطة، وتمتعوا بنوع من الحكم الذاتي وبالحفاظ على العناصر الشخصية،خاصة في بناء حارة (الملاح) كأماكن للسكن[13] واتباع تشريع المحاكم الاسرائيلية في الأحوال الشخصية. وفي كل اقليم كانوا يتكيّفون مع العادات والتقاليد الخاصة بالسكان، مع احتفاظهم بالطابع اليهودي.

وهكذا فإن الوفاق الذي تحقق لليهود كان ينبع من ثلاثة مصادر: من مصدر تشريعي، أي أحكام الإسلام الخاصة بالعلاقة مع الذميين:أهل الكتاب، ومن مصدر سلطوي وهو موقف السلطان، ومن مصدر ثالث تشكّله أعراف القبائل خاصة بسوس حيث تركز الأعراف المكتوبة على التوقير وضمان الأمن، فهي تفرض غرامات مشددة على سكان المداشر الذين يلحقون الأذى باليهود المتجولين في تلك المداشر لأغراض تجارية[14] كما تحتوي تلك الأعراف على فصول خاصة بتنظيم العلاقات في القرى السوسية التي كان يتعايش فيها السكان المسلمون واليهود.

II ــ بعض مواقع الاستيطان بسوس وطبيعته :

كان أغلب اليهود ممن سكنوا سوس قد استوطنوا القرى المتفرقة في سلسلة جبال الأطلس الصغير، وفي المناطق السهلية القريبة من الجبال بينما لا يشكل تواجدهم في المدن ــ مثل تارودانت، وتزنيت وأكادير ــ إلا نسبة يسيرة، وفي الظروف الراهنة اقفرت كل القرى والبوادي السوسية التي كانت آهلة بالسكان اليهود حتى أواخر القرن التاسع عشر، وإذا اقتفينا آثارها في تلك القرى، يمكن وضع خريطة لجغرافية الاستيطان لليهود بسوس، وقد اختفى كثير من معالمها الآن وأصبحت خراباً[15]، ونذكر منها المراكز القروية التالية :

(13) الخمليشي عبد العزيز.ــ حول مسألة بناء الملاحات في المدن المغربية، مجلة دار النيابة، عدد 14، سنة 1987، ص 21 ــ 28.

(14) العثماني محمد.ــ ألواح جزولة والتشريع الإسلامي، رسالة دبلوم الدراسات العليا مسجلة على ميكروفيلم رقم 1340 بالخزانة العامة بالرباط.

(15) تعرض الكثير من هذه الآثار للاندثار بعدما ظل مهجورا من قبل السكان في جميع القرى، وقد وقفنا على بعض أحياء الملاح في كل من إيليغ بتازروالت وأسكا أوبلاغ سنة 1978 وتاماليحت سنة 1988 (انظر الصُّور المرفقة).

ـــ (افران) على بعد حوالي 45 كلم من بيزاكارن نحو الشرق.
ـــ (تومنار) في إيغير ملولن بين أولاد جرار وتازروالت.
ـــ (تهالة) في منطقة تافروات، ولاتزال بيعتها (كنيستها) مقفلة حتى الآن (1978).
ـــ (تاندغورت) في منطقة أمانوز قرب تارصوات.
ـــ (تامانارت) شمال فم الحصن[16].
ـــ (أقا) و(طاطا) و(أكْلميم) بِوَادْنُون.
ـــ (إيليغ) بتازروالت و(اساكا أوبلاغ)، (الصورة رقم 2).
ـــ (تيلّين) على بعد 6 كلم قرب أنزي شرق تزنيت.
ـــ (تييّوْت) جنوب شرق تارودانت بحوالي 45 كلم.
ـــ (تاماليحت) بأيت وادريم بهشتوكة (الصورة رقم 3).
ـــ (غزالة) بأيت عميرة بهشتوكة.
ـــ (أيت ولياض) الجبليين بأيت باها.
ـــ (أيت ولياض) السهليين بهشتوكة.
ـــ (تَاوْجدرَارْت) بأيت مزال.

هذه أمثلة قروية زيادة على تارودانت وتزنيت وأكادير وهي مراكز حضرية، ولاتزال الخريطة لم تنته بعد، لأن اليهود كانوا قد استقروا في كثير من قرى سوس الأخرى[17] وقد دخل الكثير منهم إلى الإسلام بعد تفرقهم في أغلب القبائل السوسية[18].

(16) ذكر لنا قاضي بيكرا سيدي الحسن السملالي (توفي 1975) بأن استيطان اليهود بتامانارت يعتبر أقدم من استيطانهم بإفران، لكن بدون أن يدلي ـــ رحمه الله ـــ بدليل يؤكد ذلك.

(17) تُلتمس الاحصاءات الدقيقة لبقية القرى الجنوبية وهي كثيرة من بعض الكتابات التي اهتمت بذلك، وبخاصة كتابات دوفوكو 1883، وفلامان 1950 انظر :

- FOUCAULD, Charles de.- Reconnaissance au Maroc 1883-1884, Paris, Challamel, 1988, pp. 401-403.
- FLAMAND, - Les communautés Israélites du Sud Marocain, Presses des Imprimeries Réunies, Casablanca 1958, pp. 329-333.

وانظر لنفس المؤلف فلامان، إحصاء آخر في مجلة هسبريس 1950، ص 363 ـــ 367.

(18) توجد لدى القبائل عقود خاصة باسلام كثير من اليهود، وقد وردت حالات كثيرة ضمن ملاحق ديوان قبائل سوس، وقد قمنا بطبع هذا الديوان ولكننا أغفلنا بعض الملاحق التي

بقايا ملاح قرية أساكا أوبلاغ شرق مدينة تزنيت سنة 1978
(الصورة رقم 2)

بعض آثار ملاح اليهود بقرية تامالیحت بأيت إيلوكان بهشتوكة سنة 1988
(الصورة رقم 3)

ومع أننا لا نملك الوسائل الكافية للتعرف على كيفيات الاستيطان، وطرق الاستقرار، في هذه القبائل وفي غيرها من الحواضر، فإننا سندلي بنموذج توفرت لنا وثائق تسمح لنا بهذا التّعرف، ويتعلق الأمر بطريقة استيطان اليهود بإيليغ بتازروالت وعلاقتهم بأسرة أبي حسون السملالي : (بودميعة).

فيهود إيليغ، الواقعة في بسيط تازروالت على بعد حوالي 50 كلم شرق تزنيت، كانوا من الأصول المستقرة في قرية إفران بالأطلس الصغير، وفكرة انتقالهم إلى إيليغ تنطوي على نوع الأساليب التي كان يسلكها اليهود في التماس الاستيطان في الأمكنة الآمنة، وذات نفوذ، خصوصا وان حاضرة إيليغ ــ في عهد أبي الحسن علي (بودميعة) المعروف بأبي حسون السملالي وهو أحد أحفاد سيدي أحمد أوموسى، في بداية القرن 17 الميلادي (11هـ) ــ قد حققت الزعامة السياسية، تلك الزعامة التي ينشد اليهود في ظلها السعي وراء الكسب المادي والانتعاش الاقتصادي، ولا نتعرض هنا لتحليل ظاهرة اختيار مناطق الاستقرار ودواعيها، سواء في القرى النائية أو في مناطق النفوذ، ونكتفي بذكر وقائع هذا النموذج مع تأجيل كل تحليل أو تعليق، فما كاد أبو حسون السملالي يتقوى نفوذه بعد تأسيس الامارة السملالية[19] حتى أصبحت إيليغ مركز جاذبية في مختلف نواحي القطر السوسي، بل في جهات المغرب عموما، وكانت احتياجاته من المواد التجارية تزداد يوما عن يوم، وكانت القوافل ترد على اعتابه باستمرار، وكان ابنه محمد يتعامل مع تجار افران من اليهود، فتقدم أحد التجار من يهود إفران إلى خدمة مصالح «الأمير» محمد بدل تحمله أعباء الانتقال إلى إفران، وغيرها، وأدى قبول الفكرة إلى طلب دكان للاتجار في إيليغ، وبالتتابع حصل على امتيازات أخرى، فبعد محل الاتجار حصل على دار لسكنى أبنائه ثم استقدم حزّانا للقيام بالذبح والصلاة،

ليست من أصل المخطوط، ولكن هذه الملاحق يمكن الرجوع إليها في الترجمة الفرنسية للديوان المذكور لدى الكولونيل جوستينار، ونثبت المرجعين فيما يلي :

ــ الحساني إبراهيم بن علي.ــ ديوان قبائل سوس في عهد السلطان أحمد المنصور الذهبي، تحقيق عمر أفا، مطبعة النجاح الجديدة، البيضاء 1989، ص 15 ــ 24 وانظر :

- JUSTINARD (L.C).- LE KENNACH: une Expédition du sultan Ahmed El Mansour dans le Sous,(988/1580), in Archives Marocaines, Volume 29, 1933, pp. 165-214.

(19) السوسي محمد المختار.ــ إيليغ قديما وحديثا، تحقيق الروداني محمد بن عبد الله (كوثر) المطبعة الملكية 1966.

واستقدم الحزان عائلته مع عشرة من اليهود حتى تقبل الصلاة الجماعية، ثم قام هؤلاء ببناء (البيعة): الكنيسة، وبالتالي طالبوا بأن تعطى لهم بقعة لاتخاذها مقبرة لدفن موتاهم، وما من شك في أن هذا التوسع السريع كانت له مضاعفات إلى حد قُدِّمت فيه النازلة للفتوى، فاختلف الفقهاء في بناء الكنيسة واتخاذ المقبرة بين مجوز ومانع، ومن بين العلماء الخائضين في هذه النازلة، سيدي أحمد بن محمد الميري، دفين إيليغ، وسيدي عبد العالي بن عبد الرحمان الأنصاري من قضاة بودميعة[20] كما أن النازلة رفعت إلى مراكش وقد بسط الناصري تفاصيلها[21]، وممن رفعت إليه قاضي الجماعة سيدي عيسى السكتاني الذي أفتى بهدم الكنيسة دون المقبرة[22].

وفعلا تم استقرار اليهود بإيليغ بكيفية تجنبت كل حساسيات السكان نحو هذا النوع من الاستيطان، وقد انتعش اليهود في ظل هذه العاصمة الناشئة مُحررين من جميع التكاليف، فهم مثلا لم ينخرطوا في الصراع الذي كان يخوضه أبو حسون السملالي (بودميعة) مع الأسرة العلوية القائمة في تافيلالت، باستثناء ما كانوا يؤدونه من الجزية لأبي حسون، وكان عددهم 700 كانون أي حوالي (700 × 5 = 3500 نسمة)[23] في أيام أبي حسون وبعد تعرض إيليغ للتخريب من

(20) استخرجنا هذه المعلومات من وثائق أحفاد بودميعة التي تكرموا بتقديمها إلينا بسخاء زيادة على الرواية الشفوية المسجلة على الشريط لسيدي الحسن بودميعة توفي رحمه الله سنة 1976.

(21) الناصري أحمد بن خالد.ـــ الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، مطبعة دار الكتاب، 1956 الدار البيضاء، ج 6، ص 79 ـــ 81.

(22) ماتزال أطلال الكنيسة ـــ البيعة ـــ شاخصة حتى الآن بإيليغ وقد بنيت إثر تلك النازلة كما أنشئت المقبرة أيضا في الجنوب الغربي لإيليغ على بعد كيلومترين ونصف، وتضم شواهد قبور مكتوبة بالعبرية بعناية ولكنها مخربة الآن في كثير من جهاتها.

(23) استقيت أغلب هذه الأرقام من وثائق أسرة بودميعة ومن الرواية الشفوية لسيدي الحسَن بودميعة (هامش 20 السابق) وقد انتقد بول باسكون هذه الأرقام بعدما نقلها عني جرمان عياش فنشرها سنة 1980، ورغم ما يظهر على بعضها من مبالغة فإننا سنحتفظ بها كما هي لعدم وجود بديل لها، لأن الإحصاء الرسمي الذي أجرته مصالح الحماية سنة 1936 ونشر في : (Répertoire Alphabétique des tribus et fractions, Mars 1936) بلغ فيه عدد سكان ايليغ عموما 594 نسمة منها 217 يهودي، وهذا ليس دليلا على عدم صحة الأرقام السابقة، ذلك أن الأجزاء الضخمة التي ماتزال مخربة من المدينة الأصلية في عهد الإمارة السملالية قد تزكي الرقم المدلى به في الرواية الشفوية أو تقاربه، وقد ورد الانتقاد المذكور في كتاب :

PASCON, Paul.- La maison d'Iligh. op.cit., p. 124.

قبل مولاي رشيد سنة 1671 (1081)[24]. في حياة محمد بن أبي حسون، فر هذا الأخير بعائلته إلى أسا نحو الصحراء[25]، وبذلك انتقل يهود ملاح إيليغ إلى قرية (تاشتاكت) شمال قلعة إيليغ المخربة كما انتقل بعضهم إلى إيفران.

وما أن بنيت إيليغ مجدداً ــ في أيام هاشم بن علي جد الألغيين الحاليين وحفيد أبي حسون حوالي سنة 1806م/ 1220هـ[26] ــ حتى رجع اليهود إليها مرة أخرى، فاستأنفوا نشاطهم، وكان عددهم 160 كانونا، أي حوالي (160 × 5 = 800 نسمة) واستمر عددهم في تزايد خاصة في عهد الحسين بن هاشم وابنه محمد بن الحسين، ثم عاد إلى التناقص في عهد الحماية، وببزوغ الاستقلال سنة 1956 أصبح عددهم 70 كانونا[27] وأصبح العدد يتناقص حتى بلغ أقصاه سنة 1967 وما ان بلغت سنة 1969 حتى فرغت قلعة إيليغ نهائيا من السكان اليهود (انظر صورة 4، 5) بعد أن كانت مجالا للكسب في كثير من أنشطتهم، في التجارة ومختلف الخدمات والحرف.

III ــ المساهمة في الحياة الاقتصادية، وبعض مجالاتها :

قام اليهود ــ في الحياة الاقتصادية ــ بالمغرب بدور مهم وكانوا يمارسون عدة خدمات وأعمال لا تقتضي الاستقرار في مكان ثابت، ورغم تعدد ما يقومون به من خدمات، غير أنهم اشتهروا بالخصوص في مجال المال والاتجار أكثر من غيرهم، ولهذا السبب أصبح يطلق على اليهودي في سوس اسم عام هو (اسكاك) وجمعه (إسكَّاكْن) بمعنى صانع النقود بدار السكة، وعلى الرغم من كون بعض السكان مازالوا يستعملون إلى اليوم هذا الاسم، غير أنهم لا يتذكرون علاقته بالسكة والمال، وانما يحتفظ في ذاكرتهم بنوع من التمييز المبهم، وكانت شهرة اليهود في ميدان صناعة النقود، شهرة واسعة، عرفوا في دور السكة بتارودانت وسجلماسة ومراكش والصويرة وفاس، عبر عهودٍ طوال، وفي سوس نعثر في بعض الأحيان على أسماء تقترن بأسماء صناعها من اليهود، مثل سكة بنت التويجر، وسكة

(24) الناصري.ــ الاستقصا (م.س)، ج 7، ص 40.

(25) السوسي.ــ إيليغ قديما وحديثا، (م.س)، ص 227.

(26) السوسي، نفس المصدر، ص 237.

(27) تشمل هذا الرقم الملاحظة الواردة في (الهامش 23)، قبله.

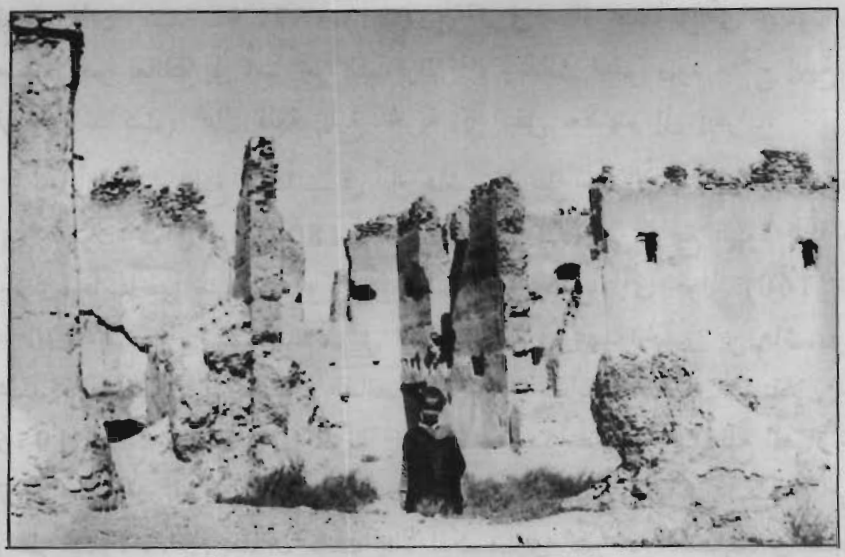

جزء من أطلال الكنيسة (البيعة) والدُّور المجاورة لها بملاح إيليغ سنة 1978
(الصورة رقم 4)

مدخل إحدى الدور وبداية زقاق بملاح إيلغ سنة 1978
(الصورة رقم 5)

ابن سبعون، وابن ميمون، وابن سلمون وابن سوسان، وكلها سكك ترد في العقود والرسوم القديمة[28] وفي العهد العلوي هيمن اليهود على صناعة النقود، واحتكروا دور ضرب السكة في مجموع البلاد[29].

ونظرا لأن اليهود مغرمون بالكسب وتحقيق مزيد من الأرباح، فقد لعبوا دورا فعالا في تجارة المغرب الداخلية والخارجية، وأصبحوا من رجال الأموال المحنكين.

وفي سوس مارسوا التجارة في مختلف المواد، خاصة منذ القرن السادس عشر، واتجروا في المواد الغذائية، ولاسيما المستوردة منها من أوربا، مثل : السكر والشاي وكذلك الأتواب من الكتان و«الخنط» والشمع والفضة، أو المجلوبة من الصحراء والبلدان الإفريقية مثل : الذهب وريش النعام والعاج والعنبر والعلك : (الصمغ)[30] أو المواد المحلية مثل الزيت وشمع النحل والحبوب واللوز[31]. وكانت لهم تجارة كبيرة بالقياس إلى بعض التجار المسلمين، إذ كانوا يمتلكون الإبل ويكترون سواقها الذين يدعون (إرفّاكن) وكانوا يتوصلون بالسلع بواسطة سفن الأوربيين التي ترد إلى موانىء ماسة وأكادير ــ قبل تأسيس الصويرة ــ وإلى شواطىء طرفاية، وبذلك فهم يقومون بدور الوسيط سواء مع الأجانب الوافدين إلى هذه الموانىء، أو مع تجار القوافل الواردين من الصحراء وبلدان افريقيا الغربية.

IV ــ علاقة يهود سوس بالصويرة :

ولما استفحل أمر الاتجار مع الأجانب في موانىء سوس وظهر أثر التفوق الاقتصادي الذي وصلت إليه هذه المنطقة بارزاً في أعمال بعض الثوار أمثال (الطالب صالح) وظهر تطاولهم إلى الحكم، قرر سيدي محمد بن عبد الله انشاء مدينة الصويرة حتى يعطل تجارة الجنوب و«حتى تتعطل على أولئك الثوار منفعته

(28) الكرسيفي، عمر بن عبد العزيز.ــ رسالة في تحرير السكك المغربية (الملحق 1) انظر : أفا عمر. النقود المغربية في القرن الثامن عشر. منشورات كلية الآداب بالرباط، 1993.

(29) أفا عمر، مسألة النقود في تاريخ المغرب في القرن التاسع عشر، منشورات كلية الآداب بأكادير سنة 1988، صفحات 27، 33، 57، 86، 187، 238.

(30) زاهر رياض.ــ الممالك الإسلامية في غرب افريقيا وأثرها في تجارة الذهب عبر الصحراء الكبرى، المطبعة الفنية الحديثة، القاهرة 1968، ص 146.

(31) تستفاد لائحة كاملة لهذه المواد من سجل الديوانة بمرسى الصويرة رقم 120 بالخزانة الحسنية بالرباط.

[يقصد ميناء أكادير] فلا يتشوف أحد إليه»[32] وذلك سنة 1765م/ 1178هـ[33] وبالتالي لتكون مركز مراقبة الجهات الجنوبية.

مما جعل اليهود ينزح غالبهم من سوس إلى الصويرة فأصبح سكان الصويرة يتكون أغلبهم من يهود سوس[34] وقد جلبهم إليها ما كانت توفره من الأمن ومن رواج التجارة، فأصبحت الصويرة المنفذ الوحيد على البحر للتجارة، المستوردة منها والمصدرة بعدما أُغلق ميناء أكادير نهائيا، وانهارت تجارة السواحل، وانتقلت رؤوس أموال اليهود إلى الصويرة، قصد استثمارها هناك، فكان عدد اليهود في الصويرة يقارب عدد المسلمين، ولا يقاربها في عدد اليهود غير دمنات وصفرو[35]، ومن الصويرة كان اليهود يوجهون سائر السلع الأجنبية المستوردة إلى سوس، من شمع وسكر وشاي وكتان، ويجلبون منها قصد الوسق إلى الخارج، اللوز والصمغ : (العلك) والزيت، والمحصولات الفلاحية وغيرها.

وأمام الكارثة الاقتصادية الواقعة بسوس بعد إغلاق ميناء أكادير[36] أصبح الناس يتوقفون هناك على خدمات اليهود، بعد هجرتهم، إلى درجة أن السلطات المحلية (القواد والشيوخ) تمنع اليهود من مغادرة سوس، لأن بعض الأنشطة الاقتصادية في المنطقة، تتوقف على وجودهم فيها، فإذا حصل يهودي على رخصة للذهاب إلى الصويرة، فإنه يُشترط عليه ترك زوجته أو ابنه لضمان عودته[37].

ونظرا لتشجيع السلط للتجار اليهود على الاستيطان بالصويرة منذ انشاء المدينة،

(32) الناصري.ـــ الاستقصا (م.س)، ج 8، ص 20.

(33) الصديقي محمد بن سعيد.ـــ إيقاظ السريرة لتاريخ الصويرة، دار الكتاب، الدارالبيضاء (دون تاريخ)، ص 16.

(34) الركراكي أحمد الرباطي.ـــ الشموس المنيرة في أخبار الصويرة، مطبعة الأمنية، الرباط، ص 12 ـــ 13.

(35) نفس المرجع والصفحة، وقد اكتفينا بهذا التعميم في غياب إحصاء دقيق في هذه الفترة، عند بداية تأسيس الصويرة.

(36) حاولت توضيح مظاهر هذه الكارثة التي أصابت أكادير، في مساهمة بعنوان «الأبعاد التاريخية لاقتصاد أكادير في القرن التاسع عشر» نشرت ضمن كتاب : أعمال ندوة أكادير الكبرى، (المحور التاريخي)، منشورات كلية الآداب بأكادير 1990، صفحات 321 ـــ 246.

(37) بن جلون عبد المجيد، جولات في مغرب أمس (1872) ـــ مطبعة النجاح، الدارالبيضاء 1974، ص 120.

فقد ازداد عددهم حتى عن الأجانب الوافدين، وعن سكان المدينة المسلمين، وقد اشتهرت أسر يهودية بأكملها في مجال التصدير والاستيراد أمثال عائلات : أفرياط، ومخلوف بوغانم، وسلام مفتالي، وابرامي بيطون، ومنان بوطبول[38]، ومن مظاهر التشجيع ان السلطة كانت تؤدي بعض الديون عن المفلسين من تجار اليهود إذا تعلق الأمر بديون الغير، أو إسقاطها عليهم إذا تعلق الأمر بديون المخزن، أثناء عجزهم عن الدفع، وغالبا ما يكتبون رسائل الاستعطاف إلى المخزن في هذا الشأن، ونذكر مثالا واحدا يتعلق بعائلة التاجر موسى بن حك أفلالو وأبناء عمه الذين أسقط عنهم السلطان مولاي الحسن بموجب ظهير[39] ما عليهم من الديون.

ولم يقتصر التجار اليهود ممن غادر سوس إلى الصويرة على عملية التصدير والاستيراد ــ مستقرين في المدينة ــ وإنما انطلقوا لتأسيس دور صناعية بأوربا وبالخصوص في مانشستر ولندن حوالي 1870م وحققوا بذلك تجارة واسعة نحو الجنوب المغربي ونحو السودان الغربي متمرسين باجتياز الصحراء[40] ولاسيما بتجارة النسيج حيث كان لهم في هذا الميدان باع طويل، وكأمثلة، نذكر أن هارون أفرياط يعتبر من الذين زاولوا تجارة الأثواب لمدة 60 سنة[41] نحو هذه الجهات.

غير أن كثيرا من التجار اليهود بسوس، لم يغادروا المنطقة من أجل الاتجار في الصويرة طوال القرون التي عرفت فيها هذه المدينة ازدهارا تجاريا، بل ظلوا يمارسون التجارة بسوس كوسطاء محليين بين تجارتي الشمال والجنوب، خاصة عندما يتعلق الأمر برؤوس أموال بعض القواد واستثمارها محليا بالفائدة، كما استفدنا ذلك من السجلات التجارية[42] لأسرة بودميعة، وخاصة منها القائد الحسين بن

(38) سجل الديوانة بمرسى الصويرة رقم 120 بالخزانة الحسنية بالرباط.

(39) صدر هذا الظهير بتاريخ 9 رجب 1298، ويوجد نصه في السجل أعلاه.

(40) زاهر رياض ــ الممالك الإسلامية في غرب افريقيا (م.س) ص 147.

(41) - ADAM, André.- Le Costume dans quelques tribus du l'Anti Atlas, Hespéris, 1952, 3e-4e Trim.

(42) اطلعنا على هذه السجلات لدى أسرة بودميعة في الأعوام ما بين 1971 و1984 وهي تحتوي على جوانب من علاقة الأسرة بتجارة الصويرة ودور اليهود في هذه العلاقة، اما تجارة اليهود في الصويرة بالذات، فقد خصص لها دانييل شريتر مؤلفا بعنوان : تجارة الصويرة، انظر : =

هاشم الالغي، فقد كان يقرض اليهود التجار عادة مقدار 200 ريال فرنصيص، ويأخذ فائدة ثابتة عنها قدرها 30 ريال سنويا، أي ما يعادل 15%، وقد تعدد التجار اليهود الذين يعاملهم نفس المعاملة، وبلغوا ما يقرب من العشرين تاجرا، كما وجدنا في السجل السابع[43]. وإذا كانت تلك الفائدة ثابتة مع اليهود، وهي 15% لعدد من السنين، فإنها غير ذلك بالنسبة للمسلمين في نفس السجل، ففي عقود الحزّان حيم بن براها، وعيش بن مخلوف والحزان داود بن حيم، في أعوام 1280 ــ 1283هـ (1864 ــ 1867م) المنصوص عليها في السجل المذكور كانت الفائدة ثابتة 15% على حين كانت الفائدة التي دفعها محمد أولمحجوب المعروف بالشيخ، والسي مبارك سنة 1289هـ/1872م تتراوح بين 10 و11 ونصف في المائة، وغير خاف أن هذه الفائدة القارة تعتبر نوعا من الربا من وجهة نظر شرعية، وقد كانت أسواق سوس ومواسمها مجالا لهذا الاستثمار، وكانت أسرة آل بيروك التي تتحكم في طرق القوافل التجارية الرّابطة بين تينبكتو والصويرة عبر واد نون، تمارس نفس الدور الذي تمارسه أسرة بودميعة في تازروالت، من حيث علاقتها بالتجار اليهود المقيمين بواد نون، فيقوم هؤلاء التجار باستثمار أموال قواد المنطقة في المواسم الكبرى بسوس، التي ترتادها القوافل التجارية الوافدة من افريقيا والصحراء، ومنها تنتقل المواد التجارية إلى الصويرة.

زيادة على هذا فإن لأسرتي بودميعة وآل بيروك علاقة بالصويرة بواسطة نوابهم من التجار اليهود، أمثال عائلة افرياط، وعائلة يوسف وعمران المالح وغيرهم.

ونتيجة لما لأسرتي بودميعة وآل بيروك من نفوذ على تجارة افريقيا وسوس، وما تشكلانه من خطورة على مداخل المخزن في الصويرة من هذه التجارة، فإن هذه الخطورة ازدادت حينما فتح الشيخ بيروك مفاوضات مع الأوربيين، لانشاء مراكز تجارية بسواحل واد نون، وهذا ما جعل المخزن يقدم تنازلات لهاتين الأسرتين، تتمثل في اعطائهما منازل خاصة بالصويرة، بل قدم المخزن لآل بيروك نسبة مئويّة من مداخل الصويرة سنة 1847، الشيء الذي مكن هاتين الأسرتين

= - SCHROETER. Daniel.- Merchants of Essaouira (1844-1886).- Cambridge, University press. 1988, New York. U.S.A.

(43) رقمت هذاالسجل حسب الترتيب التاريخي لسجلات بودميعة التجارية وقد درس الباحث باسكون نفس السجل تحت رقم K 3 انظر مرجع (الهامش 3) السابق.

من ثروات هائلة، وكان يهود ايليغ ويهود كَلميم يتمتعون بثراء حصلوا عليه تحت رعاية هاتين الأسرتين.

v ــ استخلاصات :

ونخرج من هذا العرض، بأن سوس، إذا كان يتميز بقدم التعمير فيما يخص الجالية اليهودية، التي استوطنت أغلب جهاته، الحضرية والقروية، فتعايشت مع السكان في وفاق يؤطره رعاية حقوق الذمي في الشريعة وفي أعراف القبائل، فإن التطور التاريخي الذي أدى إلى تعطيل دور ميناء أكَادير الاقتصادي بعد تأسيس ميناء الصويرة سنة 1765، فتحول معه كثير من الأسر من بينها الأسر اليهودية المشهورة بالتجارة والمال إلى الصويرة مما انعكس سلبيا على سوس وأكَادير فأصبح مجرد منطقة عبور(44).

وإذا استطاعت الصويرة أن تؤدي مهمتها كإحدى الثغور التي راقب فيها المخزن تحركات الأوربيين على شواطىء سوس والجنوب المغربي، كما أدت مهمتها، في إطار تنظيم التبادل التجاري، الخاص بالبضائع الأوربية والبضائع الواردة من سوس والصحراء وتنبكتو، بواسطة طاقم من التجار اليهود والمسلمين، وبالتالي كانت مصدرا لمداخل هامة لبيت المال، فإن تزايد الضغوط الأجنبية على سواحل سوس والصحراء، وفتح مفاوضات من قبل التجار الأوربيين مع بعض الزعامات المحلية لإنشاء مراكز تجارية على تلك السواحل، أفقد الصويرة تلك المكانة، وكان من الضروري تأسيس مدينة تزنيت 1882، كنقطة للمراقبة بدلا من الصويرة، في أعقاب زيارة السلطان مولاي الحسن إلى سوس.

لكن الوضعية السياسية لما بعد موت مولاي الحسن أدت إلى ارتباك أمن الطرقات، فتفاحشت الرسوم التي كانت تؤديها القوافل التجارية في النزائل، في عهد القائدين اكَلُّول وانفلوس، وأحجم التجار اليهود والمسلمون عن العمل فتقلص الدور التجاري لهذه الجهات في أواخر القرن التاسع عشر، وارتفعت هجرة

(44) انظر موضوع : «الابعاد التاريخية لاقتصاد أكادير في القرن التاسع عشر في مرجع (الهامش 36) السابق.

(45) نعني هنا الثقافة المكتوبة، وإلا فإننا نجد بعض الآثار للتبادل بخصوص تقاليد حرفية محدودة.

اليهود من سوس إلى ملاح الصويرة، حينما صاحب هذا التقلص سنوات من الجذب والمجاعة.

هكذا قام اليهود في سوس والصويرة بدور مهم في مجال التبادل التجاري وبعض الحرف، غير أن مجالات أخرى في الحياة اليومية، عرفت سلبيات كثيرة، وبالخصوص في مجال الثقافة[45]، فلا نجد من تعلم اللغة العبرية قراءة وكتابة من السكان، المسلمين بل بالعكس نجد كثيرا من اليهود المتحدثين بالأمازيغية في حاجة إلى من يترجم رسائلهم المكتوبة بالحروف العبرية وباللهجة العربية إلى اللغة الأمازيغية (انظر صورة رقم 6)، ولا يعرف سكان إيليغ وتارودانت الأكثر قربا من سكنى اليهود، غير كلمات قليلة لا يتذكرونها الآن تماما، وهذا الجانب في حاجة إلى المزيد من الدراسة.

مختصر الرسالة : (صورة رقم 6)

بعد تقديم عبارات التحية، ونصها : «القريب إلى قلبي المحترم داود ــ أُو ــ [بن] حيون» سأل عن شمعون وعن الأولاد والبنات والأهل جميعا، وعبر عن الاحساس بالحنين والشوق إلى لقاء الأهل، داعيا الله أن يسهل ذلك اللقاء في أحسن الأوقات.

عاتب داود على عدم كتابة ولو «بريا بجوز حروف» [رسالة من حرفين] كما أعلمه بأن صهره رجع إلى «تاصورت» [الصوير] لأنه لم يَطمئن لأحد على الأمانة «دي تعرف» [التي تعرفها]... وأكد مرة أخرى على ضرورة الكتابة.

الكاتب حنينا بن موسى ــ أُو ــ [بن] حيون
بتاريخ 5702 للخليقة [1942م]
(من ترجمة الأستاذ أحمد شحلان)

(45) نعني هنا الثقافة المكتوبة، وإلا فإننا نجد بعض الآثار للتبادل بين اليهود والمسلمين بخصوص تقاليد حرفية محدودة.

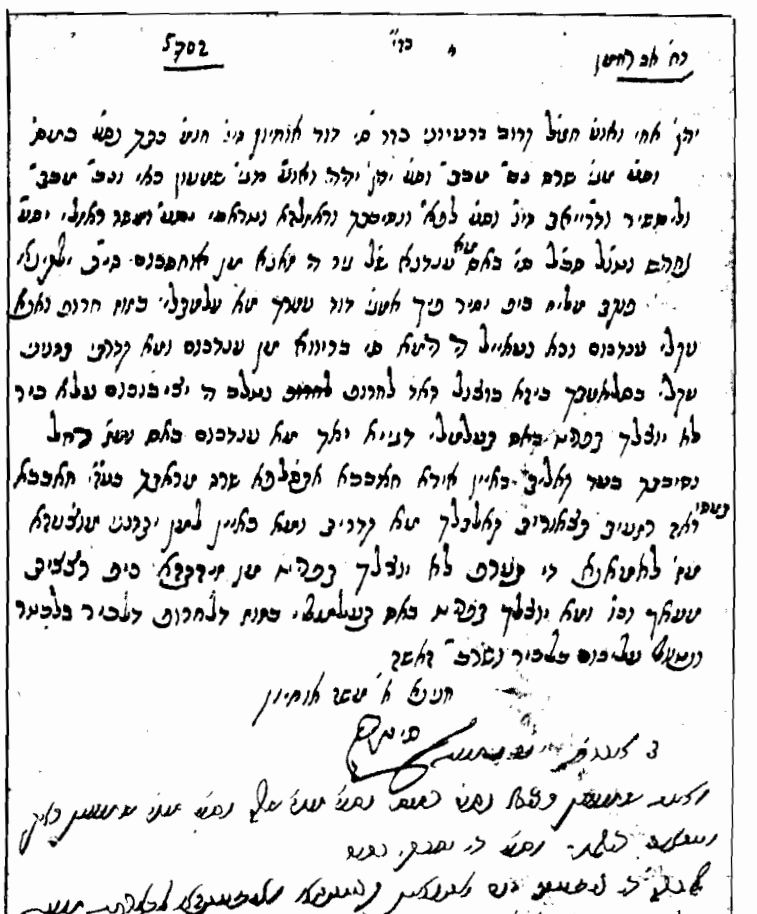

رسالة نموذجية عثرنا عليها بقرية تاماليحت (صورة رقم 6)